مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ: ١٩٧٨/١٠/٥

قمـــة حـــرب الخـــداع .. فى أكتـــوبر !

● كيف تحولت حرب أكتوبر الى ملحمة خالدة من حيث الفكر والتخطيط والاداء ؟

● وكيف قام المصريون بتطوير طائرات القتال التى نملكها لكى تصبح أطول مدى وأقدر على حمل أسلحة أكبر ؟

قد

يأتى يوم يعترف فيه الجميع أن حرب اكتوبر ٧٣ هى قمة حرب الخداع والدهاء العسكرى ، التى استجمع خلالها المصريون كل حيل ودهاء العقل الانسانى واقصى ما يمكن أن تقدمه ســـواعد الرجال ، ليتغلبوا على سلسلة عاتية من عقبات ومؤامرات بدأت منذ سنوات طويلة ، وساهمت فيها اكبر دول العالم بمعســـكريه الشرقى والغربى ، وان اسهل تلك العقبات قد يكون خط بارليف الشهير الذى عـــرف بأنه اكبر مانع عسكرى فى تاريخ الصراع الانســـانى .

كان لابد من هذا الدهاء للتغلب على المخابرات المركزية الامريكية (C.I.A) والمخابرات الســوفيتية (K.G.B) والاسرائيلية [الموساد] والبريطانية (S.A.S) .. وجميعها كانت متوغلة فى الصراع العربى الاسرائيلى بصورة مباشرة ، بل وأكثر من ذلك كانت هناك أطراف عربية لعبت دورًا خطيرا فى مختلف مراحل هـذا الصراع

من هنا كان ولابد أن يكون الخداع محكما ، وربما كان ذلك هو السبب فى ان الفريق أول محمد الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وقتذاك كان يدون بنفسه مراحل وتفاصـــيل خطة الهجوم فى أجندة خاصة لا تفارقه ولا يتركها أبدا ، لان الاسرار هائلة والتحديات والنتائج لا يتخيلها عقل .

وكما يقول أحد الخبراء العسكريين فان اكبر خـدعة فى حرب أكتوبر لم يذكرها أحد الى الان ، صحيح كانت هناك بنود خداع عديدة قبل المعـركة ولكن أن ينطـوى هجوم الســادس من أكتوبر على خدعة كبرى فذلك مـا لم يتصوره أحد ، وهذا هو الجديد !

بدأ الهجوم بمواجهة ضخمة امتدت لاكثر من ٢٠٠ كيلومتر من بور سعيد شمالا الى شرم الشيخ جنوبا . وفى نفس الوقت حملت طائراتنا الهليكوبتر عناصر من القوات الخاصة الى قلب ســيناء عند مناطق الاقتراب المحتملة التى ستتقدم عليها الاحتياطيات القريبة والبعيدة لجيش الدفاع الاسرائيلى ، والتى ستكلف بعملية الهجوم المضـاد ضد قوات الاقتحام المصرية عنـد خط القنـاة ..

ولاننا نجحنا فى تحقيق مبدأ المفاجأة نجاحا تاما ، فلم يكن أمام الجـانب الاسرائيلى الا أن يجلس ليفكر ويتدارس

ما يجرى على الطبيعة وأمام عينيه فوق مسرح العمليات .

عندئذ رأى القادة الاسرائيليون التابعون فى مركز القيادة الرئيسى للقوات المسلحة الاسرائيلية ، أن المصريين يقتحمون القناة بجيشين : الجيش الثانى فى القطاع الشمالى ، والجيش الثالث فى القطاع الجنوبى من القناة علاوة على عناصر من القوات الخاصة تم ابرارها شرقى خليج السويس وعند منطقة شرم الشيخ ، وفى قلب سيناء عند منطقة الممرات بمواجهة — كما قلنا — تمتد لاكثر من ٢٠٠ كيلو متر

ورأى الجانب الاسرائيلى أيضا أن هذا الاقتحام بدأ بهجوم جوى مصرى على القواعد الاسرائيلية فى سيناء ، واشتركت فيه أكثر من ٢٣٠ مقاتلة وقاذفة مقاتلة مصرية ، كما انطلقت من الضفة الغربية لقناة السويس طلقات أكثر من ألف مدفع مصرى من المدافع الثقيلة والمتوسطة .

حينئذ لم يكن أمام أى قائد عسكرى الا أن يستنتج انه أمام هجوم شامل يرمى الى احتواء سيناء بأكملها ، وحينئذ بدأت اجراءات الهجوم المضاد الاسرائيلى ، وخاصة بعد أن سقط خط بارليف فى أيدى القوات المصرية ، على أساس مقابلة القوات البرية المصرية أثناء توغلها داخل سيناء .

وحتى يمكن السيطرة على هذا الخطر المتقدم رأى الاسرائيليون ضرورة اللحاق بالقوات المصرية قبل وصولها الى منطقة الممرات ، وخاصة أن منطقة غرب الممرات هى منطقة صحراوية مكشوفة يسهل فيها اصطياد القوات المصرية المتقدمة والتى تكون عندئذ قد خرجت عن نطاق شبكة الدفاع الجوى المصرية المتمركزة غربى قناة السويس ، مما يسهل مهمة السلاح الجوى الاسرائيلى الذى عانى الامرين من هذه الشبكة المنيعة .

ومنطقيا ، فانه طالما كانت قواتنا تتقدم من اتجاه الغرب الى اتجاه الشرق فقد اختار الاسرائيليون أن يكون اتجاه هجومهم المضاد من الشمال الى الجنوب ، وبذلك يكسرون القوات المصرية المهاجمة من أجنابها التى تعتبر منطقة ضعيفة يسهل خلالها تدمير قوات الخصم .

وهنا يقول المحلل العسكرى الاسرائيلى الشهير حاييم هرتزوج فى كتابه حرب التكفير : تقدمت القوات الاسرائيلية المكلفة بمهمة الهجوم المضاد من اتجاه الشمال الى الجنوب كما كان محددا لها ، ولكنها تعرضت لوابل هائل من نيران المدفعية المصرية المتمركزة على الضفة الغربية لقناة السويس ، ثم بدأوا بعد ذلك الاشتباك مع وحدات الفرقة ١٨ مشاة المصرية التابعة للجيش الثانى الميدانى ؟ وفى اليوم الثالث من الحرب [الثامن من أكتوبر] تنبه الجنرال الاسرائيلى « برن » الى أن الالوية التابعة له والمكلفة بعملية الهجوم المضاد ، كانت تتحرك فعلا حسب التعليمات من اتجاه الشمال الى الجنوب ولكنها كانت متوغلة فى اتجاه الشرق وبعيدا عن القوات المصرية ، ونتيجة لهذا الخطأ الذى لم يتم تصحيحه فى الوقت المناسب ، فانه بدلا من قيام القوات الاسرائيلية باكتساح الجناح الشمالى لرؤوس الكبارى [التى أقامتها فرق المشاه المصرية بعد اقتحام قناة السويس] فان الفرقة الاسرائيلية بقيادة الجنرال « برن » كانت تتحرك صوب رؤوس

الكبارى للقوات المصرية وبالتالى تغير اتجاه الهجوم الاسرائيلى من الشرق الى الغرب مباشرة [بدلا من الشمال الى الجنوب كما كان مخططا من قبل] واخذ هذا الهجوم اتجاها مباشرا صوب مواقع المصريين » .

ويعنى آخر فانه فى اللحظة التى كان يتصور فيه القادة الاسرائيليون انهم سيتهشمون جوانب القوات المصرية المهاجمة ، جاءت الخدعة الكبرى عندما توقفت القوات المصرية شرقى القناة وفى مرحلة لم تكن هناك امامها اى مقاومة ، بل كان الطريق مفتوحا على مصراعيه ، وقامت قواتنا على عكس ما توقعه اى قائد عسكرى ، بالتوقف على مسافة بضعة كيلومترات من القناة وتجهيز مواقع دفاعية سريعة ، فلما جاءت قوات الهجوم المضاد الاسرائيلى كانت اجناب هذه القوات هى المعرضة لرمى نيران قواتنا ، وتحول الصياد الى فريسة !

ولقد كانت هذه النقطة بالذات مثار تساؤلات كثيرة داخليا وخارجيا : لماذا توقفت القوات المصرية بعد اجتياح خط بارليف ورغم عدم وجود مقاومة امامها؟ واستشهد الخبراء والمفكرون العسكريون فى ذلك بالمبادىء الكلاسيكية لفنون الحرب ، والتى ينادى احدها بضرورة **استغلال النجاح** ، بمعنى استمرار التوغل داخل نطاقات دفاع الخصم طالما أمكن تحطيم مقاومته الرئيسية ، ولكن حرب اكتوبر لم تكن ابدا حربا كلاسيكية ، بل حربا فريدة من نوعها وهذا هو سر عظمتها والسبب الرئيسى لنجاحها .

كانت اسرائيل متفوقة علينا بريا وجويا من حيث المعدات التى تملكها ونوعية هذه المعدات ، وكانت اسلحتنا فى مجملها اسلحة دفاعية بالدرجة الاولى ، فى حين أن المهمة المنتظرة لنا والواجب تنفيذها لتحرير اراضينا **هى مهمة هجومية تبدأ بسلسلة هائلة من الموانع الطبيعية والصناعية .**

فى ذلك كانت بصمات الدولتين العظميين واضحة للغاية ، وتعكس رغبة حقيقية من جانبهما على ابقاء الاوضاع فى المنطقة على ما هى عليه ، تساوت فى ذلك الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .

ولعل تلك الحقيقة كانت الخلفية التى استند اليها المغفور له المشير احمد اسماعيل على عندما قال فى احدى خطبه بعد حرب اكتوبر **أن هذه الحرب بعثت الامل بين دول العالم الثالث بأن اكدت انه رغم سياسة الوفاق بين الدولتين العملاقتين : الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى ، فان حرب اكتوبر اوضحت ان دول العالم الثالث مازالت قادرة على سلك الطريق الذى تختاره ، وعلى التأثير والتغيير فى مسرح السياسة العالمية لو انها تضامنت فى خطة عمل مدروسة جيدا ، ومعتمدة فى تنفيذها على جهود ومعنويات ابنائها ..**

قمنا بتطوير طائرات القتال التى تملكها بحيث اضفنا الكثير الى امكانياتها وبصفة خاصة من حيث المدى الذى تقطعه وكميات الاسلحة التى تحملها وفوجىء الخصم بهذه الطائرات فى اماكن وبحمولات لم تكن حساباته قد تضمنتها ، وقمنا بتطوير استخدام عناصر الدفاع الجوى فجاءت لها مفاجأة للجميع بما فيهم الاتحاد السوفيتى نفسه لدرجة ان قائد الصواريخ هناك جاء لزيارتنا فى الايام الاخيرة

من القتال وظل يفاوض ويساوم للحصول على تقارير تفصيلية وافية عن الاساليب التى اتبعناها لاسقاط الطائرات الاسرائيلية (وهى بالطبع امريكية الصنع ومن انواع متقدمة جدا) كل طراز على حده ، وكل سلاح من اسلحتنا على حدة ـ وذلك كشرط اساسى لكى يرسل الينا ذخائر ومعدات الدفاع الجوى التى كنا فى مسيس الحاجة اليها فى ذلك الوقت بعد أن استنفدنا الكثير خلال عمليات القتال .

وهناك ابتكارات عديدة أضفناها الى استخدامات كافة الاسلحة البرية التى تملكها حتى تتغلب على التحديات الهائلة التى نواجهها فجاءت حرب اكتوبر ملحمة خالدة من حيث الفكر ، والتخطيط ، والاداء .

لم تكن المسألة مجرد عبور أو اقتحام مسلح للضفة الشرقية لقناة السويس ، ولكن المؤامرات ضدنا كانت تحاك فى عدة مواسم كبرى . وبصفة خاصة بواسطة أجهزة المخابرات فى عدد من الدول الكبرى حتى أن كل دول العالم ـ وعن طريق المعلومات الدقيقة التى تقدمها أجهزة المخابرات تلك ـ أدركت اننا لن نستطيع أبدا أن نشن هجوما مسلحا ضد اسرائيل ، وأننا لو فعلنا ذلك فاننا هالكون لامحالة .. وهنا يظهر مرة أخرى حجم الانجاز الذى حققناه خلال هذه الحرب تحت تلك الظروف .

ويبقى بعد ذلك سؤال على جانب كبير من الاهمية :

ما هى تلك المؤامرات التى كانت تحاك ضدنا ؟ وما هى طبيعتها ؟

ويجيب على هذا السؤال الصحفى البريطانى انتونى بيرسون فى واحد من أخطر الكتب التى ظهرت حديثا وعنوانه مؤامرة الصمت ، وقد جاء الكتاب نموذجا لما يمكن ان يقدمه صحفى قدير عندما تنقل بين واشنطن ولندن القاهرة وتل أبيب وعمان ودمشق وصنعاء ، بحثا وراء قصة الهجوم على سفينة التجسس الامريكية ليبرتى التى كانت تعوم فى مياه البحر المتوسط شمال سيناء وخلال حرب يونيو ١٩٦٧ ، وكانت هذه السفينة الصغيرة هى المفتاح الذى استطاع بيرسون من خلاله أن يزيح الستار عن مؤامرة ضرب مصر وقواتها المسلحة من أجل مصالح مشتركة أمريكية وسوفيتية واسرائيلية ، وكيف كانت احدى الدول العربية تعلم بهذه المؤامرة وحجم الكارثة الوشيكة التى ستنزل بنا ، ثم كيف فى النهاية تهربت اسرائيل وخدعت الجميع بما فيهم الدولتان العظميان ! . □

تحقيق : محمد عبد المنعم